الذوق

بحث فلسفي لجناب يوسف افندي شلحت

الذوق في اللغة اختبار الشيء او الطعام وفي الاصطلاح قوة الذائقة وهي قوة منبثّة في العصب المفروش على جرم اللسان تدرك بها الطعوم بواسطة الرطوبة اللعابيّة وهي من الحواس الخمس الظاهرة. وتُطلق لفظة الذوق على قوة باطنة في النفس تدرك المليح والقبيح من المحسوسات والاديبات وتفرق بين المستحسن والمستهجن منها . وقد عرّف الذوق بعض العلماء بانهُ ميل النفس الى الجميل في الطبيعة والصناعة . والتعريف الاول اوفى بالمقصود وعليهِ عولنا في هذه المقالة . واذا دققنا النظر في هذه القوة الباطنة رأيناها فطرة غريزيّة في بني آدم لا فعلاً من افعال العقل . فان استحساننا للمليح من الاشياء واستهجاننا للقبيح منها ليسا ناتجين عن اكتشاف حقيقة توصل اليها العقل بقوة البرهان والاستدلال بل هما ارتياح وتنور يشعر بهما الانسان بداهةً عند ادراكهِ الملائم وغير الملائم من الامور. ومثل ذلك مثل من يحس بنشاط يطيب لهُ صدرهُ وتتنفّس بهِ نفسهُ حينما يدخل روضة انيقة زاهية الاشجار يانعة الاثمار فهذا النشاط يحصل فيهِ عن غير فكر وروية . وكذلك التنور الذي نشعر بهِ عند مشاهدتنا رجلاً مصابًا بفروح وبثور شوّهت وجههُ فذلك يحدث فينا كرهًا لا عن ارادة منا او تبصُّر . ولا ينتج مما تقدّم ان لا دخل للعقل في امور الذوق فان العقل كما سنبين في سياق البحث يهذّب الذوق ويضبط قواعدهُ واحكامهُ ويفصل بين السليم منهُ والفاسد

ويشمل الذوق المحسوسات من الاشياء مثل الملبوس والمفروش والفنون الجميلة من تصوير ونقش وبناء وغناء والاديبات مثل الانشاء نظمًا ونثرًا والعوائد المألوفة بين البشر في معاملاتهم اليوميّة وغيرها . وليست قوة الذوق متساوية في البشر بل الاختلاف فيها يفوق كثيرًا ما نعهدهُ في الناس من التفاوت في قوة الادراك وذكاء العقل . وسبب ذلك التباين الذي بيننا في البنية وقوة الحواس الظاهرة والباطنة والاطوار والاميال وخصوصًا الفرق في درجات التهذيب والحضارة

وهذا الاختلاف في الذوق ما يفسّر المثل اللاتيني القائل " لا جدال في الذوق " ويقاربهُ معنى المثل العربي " ان للناس في ما يعشقون مذاهب " . غير ان ذلك لا يعني ان الذوق ليس لهُ ضابط يعوّل عليهِ ويرجع اليهِ في الحكم على المليح والقبيح والّا لتساوى

الذوق السليم والفاسد وكان الاستحسان والاستهجان للشيء الواحد امرًا غير مردود . على ان المعنى المقصود من المثل ان لكلّ من بني آدم اميالاً فطريّة خصوصيّة تحمله على تفضيل شيء على شيء من المحسوسات والادبيّات وتجعله يستحبّ هذا ولا يستملح ذاك منها وهو لا يستطيع في غالب الاحيان ايراد سبب كافٍ لبيان وجه الصواب في التفضيل والاستحسان ومن ثمّ لا سبيل الى مجادلته في ما يحب . غير ان الجدال في الذوق اذا صحّ امتناعهُ في المتنوّع فليس كذلك في النقيض وبيان ذلك انا اذا حضرنا ناديًا دار فيهِ الكلام على الذوق في الازياء واخذت النساء يتناظرنَ في ما هو خاصّ بهنّ من الملبوس فمنهنّ من قالت : ان الثوب العظيم المقبب هو الزيّ المقبول الذي يروق للعين و يستحسنهُ ذوو الكياسة . وقالت أُخرى : بل الثوب الضيق المسطح له في الملاحة شأن كبير يظهر بهِ القد الاهيف والقوام المهفهف . وادّعت ثالثة بانها بين بين فلا يعجبها ثوب عظيم اشبه شيء بزقّ منفوخ ولا ثوب ضيق كأنهُ محراك التنور بل يروق لها ثوب بين الضيق والواسع والمقبب والمسطح لا طويل ولا قصير لان فيهِ راحة الجسم وسهولة الحركة . فاذا اردنا خصم الجدال بينهنّ فقلنا " لا جدال في الذوق " جاء قولنا هذا حدًّا فاصلاً يقال له قطعت جهيزة قول كل خطيب . وما ذلك الاّ لكون اختلاف الذوق في المتنوع لا يوجب وجود النقيضين معًا . واما اذا دار الجدال مثلاً فيما اذا كان شعر الشارب رقيقًا او لا فلا يصح بذلك اختلاف الذوق واذا تمسّك فريق بالايجاب وآخر بالانكار فلا يمكن الفصل بينهما بقولنا "لا جدال في الذوق" لان ذلك مما يوهم بان شعر الشارب يمكنهُ ان يكون رقيقًا وغير رقيق في آن واحد وهذا مردود . ومن ثمّ فبين احكام الذوق واحكام العقل بون بأن كلّ حكم من الاحكام الناتجة من القياسات العقليّة ينفي ما يناقضه من الاحكام . وليس كذلك احكام الذوق فقد يصح ان يكون بين حكمين تباين و يكون الحكمان صحيحين وسبب ذلك ان الحق الذي هو موضوع العقل واحد لا يتجزأ اما الجمال الذي هو موضوع الذوق فلهُ اشكال وانواع كثيرة

وقد اختلف العلماء في تعيين ضابط الذوق فمنهم من قال ان لا ضابط له اصح من اتفاق عموم الناس على استحسان مليح واستهجان قبيح فهذا الاتفاق هو المحك الحقيقي الذي يفرق بين الزائف والخالص من الاذواق ويميز السليم من الفاسد . وعليهِ فكل شيء اجمع الناس على استحسانهِ فهو مليح وكل شيء اتفقوا على استهجانهِ فهو قبيح . وعلى ذلك فالذوق الذي هو قوة باطنة في النفس يشبه الذوق الذي هو حاسة ظاهرة في الجسد . فكما ان الحكم في

الطعوم متوقف على اختبار عموم الناس لها كذلك الحكم في المليح والقبيح متوقف على ما يشعر به جميع الناس من هذا القبيل . ومن قال مثلاً ان طعم السكر مرٌّ وطعم الملح حلوٌ كذَّبناهُ حتمًا وقلنا له ان فيك علة افسدت قوة الذائقة . وكذلك من ادَّعى مثلاً بان منظر بستان فيهِ ازهار واثمار تجري فيهِ الانهار وتغرّد الاطيار لَمِن المناظر الشجيَّة المحزنة التي تزيد في القلب صداً الغم وتبالغ ببواعث الهم نسبناهُ لا محالة الى فساد في الذوق وخبل في العقل

على ان هذا الرأي اي جعل ضابط الذوق الاتفاق العام فيهِ مشقة وخطاء . اما المشقة فعدم امكاننا في اغلب الاحيان التوصل الى معرفة الرأي العام في مسألة مخصوصة من مسائل الذوق . وهذه الصعوبة من شأنها ان تحول دون البلوغ الى حكم باتّ في مشكل مداره معرفة المستحسن والمستهجن فحسبي احيرمن ضب لا نميز الغث من السمين ولا نفرق بين السليم والفاسد . وهذا اكبر نقص في ضابط من الضوابط العلميَّة التي لا يمكنها ايفاء الغرض المقصود منها الاَّ اذا كانت قريبة المنال للداني والقاصي . واما الخطأ فكونهُ يجعل المسبَّب سببًا ويقيم المعلول مقام العلة وبيان ذلك ان اجماع الناس على استحسان مليح ليس هو سبب الملاحة الموجودة فيهِ بل ان الملاحة في الشيء هي سبب اجماع الناس على استحسانهِ فاذا قلنا ان المليح مليحٌ لان عموم الناس قد اتفقوا على حسبانهِ مليحًا تكون قد فسَّرنا الماء بالماء على قول المثل واخطأنا الغرض في البحث عن العلة الاخيرة للمليح التي هي الضابط الحقيقي للذوق . فاننا في البحث عن هذا الضابط وبيان ماهيتهِ لا تكفينا الاشارة الى واقعة الحال في امور الذوق بل يجب علينا استقصاء علة هذه الواقعة . اي اننا اذا اردنا الوقوف على ما اذا كان عمل من اعمال الفنون الجميلة او عادة من العوائد المألوفة او تأليف من التآليف الادبيَّة مليحًا او غير مليح فلا تتم فائدة البحث باستقراء ما قالهُ الناس او شعروا بهِ من هذا القبيل بل يقتضي لنا امعان النظر في نفس الشيء واطالة التبصُّر في اجزائهِ وتركيبهِ لنرى ما اذا كان مستوفيًا شروط الملاحة او حاصلاً على البعض منها او خاليًا منها . فان صحة الحكم في ملاحة الاشياء متوقفة على اصابة الراي في تفحص باطن امرها وكنه صفاتها لا على ما يشعر زيد وعمرو بشأنها . وهذا يفسِّر لنا التقلبات الطارئة على الذوق في توالي الاعصار مع ثبات مبادئهِ رغمًا عن العوارض المخلة التي حاولت حينًا بعد حين نقض اصولها وتشتيت فروعها . فاننا كثيرًا ما نقرأ في التاريخ عن امم فسد ذوقها وعابت اخلاقها الى درجة ادَّت بها الى استحسانها القبيح الظاهر واستهجانها المليح الرائع وذلك عن فساد في السياسة او في المذهب او في الآداب . فان الجور في الحكم والتعصب في الدين والخلاعة في

الآداب لها كبير تأثير في الذوق وقد تحمل الناس على استحسان شيء وهم لو كانوا راتعين في ظل حكومة عادلة متمسكين بمذهب معتدل متخلقين باخلاق طاهرة لكانوا استشنعوهُ ونبذوهُ ظهريًّا . غير ان هذا الفساد في الذوق لا يلبث الاَّ مدة زمانيَّة ثم تنهض الاميال السالمة من غلتها فتشن الغارة على اضغاث الاحلام وتسلط الاوهام وتدور الدوائر على الذوق الفاسد فيتغلَّب عليهِ السليم و يبتدأ بدور التهذيب والاصلاح . وما ذلك الاَّ لان ضابط الذوق لا يقوم باتفاق قد ينتج عن دافع الشهوات ومطامع الاغراض بل هو كائن في ذوات الاشياء والذوات مستقلة ثابتة لا تعبث بها العوارض الطارئة عليها

وعلينا ان نرى الآن ما هو هذا الضابط فنقول ان الذوق كما سبق بيانهُ قوة باطنة تحمل النفس على الميل الى المليح والنفور من القبيح المحسوس والادبي . وهذا الميل والنفور هما في النفس بمقام القوتين الجاذبة والدافعة اللتين نشاهدهما في العناصر الهيولية . غير ان بين هاتين القوتين في المادة وقوتي الميل والنفور في النفس فرقًا بان الاولين تفعلان بالمادة بنوع متساوٍ لحصول الموازنة التي هي من الشروط الضروريَّة لحفظ الكون اما الاخريين فيختلف مفعولها باختلاف استعداد الافراد واطوارهم وتهذيبهم ودرجة الحضارة التي هم فيها . وقد يحدث كما ذكرنا آنفًا ان الانسان لخلل وقع فيهِ يميل الى القبيح وينفر من المليح وهذا ما نسميهِ فساد الذوق ولا يمكننا تمييزهُ من الذوق السليم ما لم ندرك ما هو المليح الذي يميل الانسان اليهِ والقبيح الذي ينفر منهُ . قال القاموس " الجمال الحسن في الخَلق والخُلق وفرق بعضهم بين الحسن والجمال بان الحسن يلاحظ لون الوجه والجمال يلاحظ صورة اعضائهِ والملاحة تعمها جميعًا . فكل مليح حسن وجميل معًا وليس كل حسن جميلاً ولا كل جميل حسنًا . والقبيح ذو القبح وهو ضد الحسن يكون في القول والفعل والصورة " . وهذا التعريف اللغوي للمليح والقبيح قاصرٌ كما هو شأن كل تعريف لغوي على بيان وجه الدلالة لا على بيان ماهية المدلول وفيهِ نوع من الخطاء بانهُ جعل القبيح الذي يطلق على القول والفعل والصورة ضد الحسن الذي يلاحظ لون الوجه وكان حقهُ ان يجعلهُ ضد المليح لان دلالة المليح اعم من دلالة الحسن والجميل لاشتمالها على ما تدل عليهِ هاتان اللفظتان معًا . وهذا حملنا على استعمال لفظة المليح في هذا البحث لان الذوق غير مختص بنوع من الجمال بل يشمل كل ما دخل في حيّز الملاحة من قول وفعل وصورة . واما تعريف العلماء للمليح فقد استغرق رسالات ومصنَّفات لو جُمعت على حدتها لألَّفت مكتبة كبيرة . ونحن نلخص هنا ما اجمع عليهِ رأيهم في هذا الموضوع فنقول

ان المليح ما اثار في حواسنا الظاهرة وقوانا الباطنة لذةً ينشرح بها الصدر وتطيب لها النفس وشروطه الوحدة والتنوع والتناسب والاعتدال والترتيب والنظام والتقانة والطلاوة وموافقة الاجزاء للمجموع والوسائط للغاية . وليس من الضرورة ان يشتمل الشيء على كل هذه الشروط ليكون مليحًا بل درجة الملاحة في الشيء متوقفة على عدد الشروط المتوفرة فيهِ . ووضع هذه الشروط مبني على ما استدل عليهِ العلماء بالبحث المدقق عن طبع الانسان من حيث ادراكهِ الاشياء وما يحصل لهُ من التأثر عند تمثيلهِ الموضوعات الحسية والادبية . فمن المعلوم المقرر ان كل شيء يؤثر تأثيرًا لطيفًا في الحواس الظاهرة والقوى الباطنة بحيث يتمكن الانسان من ادراكها لاول وهلة دون تكلُّفٍ وعناء يثير فينا ارتياحًا ولذة تنتعش بها النفس . وهذه السهولة في ادراك الشيء قائم بها كنه الملاحة لانها علة ما يشعر بهِ الانسان من الميل الى ما يدعوهُ مليحًا . وسبب ذلك واضح فان تمثيل الاشياء الخارجية في الذهن هو فعل القوى المثلة وبهِ يقوم ترويضها وهي لا تميل الا الى ما لا يحمّلها ثقيلة تعبًا ومشقة وهذا ما جعل بعض العلماء يرتأون ان الشروط الاساسية للملاحة هي الوحدة مقرونة بالتنوع وتناسب الاجزاء ذلك لما يثيرهُ فينا الشيء الذي تتوفر فيهِ هذه الشروط من التأثرات العديدة والتصورات المتنوعة مع سهولة ادراكها دفعة واحدة . وكذلك الشروط الاخرى السابق ذكرها تكسب الاشياء ملاحة لانها تقربها الى الحواس وتسهل امر ادراكها وتصويرها في الذهن . فالترتيب مثلاً والنظام والتقانة التي نلاحظها في المحسوسات تروق للعين لسهولة ادراك الباصرة لها من غير كبير امعان ومثل ذلك مثل من دخل بيتًا مفروشًا مزينًا بالاثاث والطنافس والستائر موضوعًا فيهِ المتاع في المحل المناسب له وهو موافق بعضهُ لبعض من حيث الحجم والشكل واللون فيروق له منظر هذا البيت ويطيب له القعود فيهِ لان الباصرة يهون عليها ادراك ما فيهِ بلمحة وبدون تعب ويشعر بعكس ذلك من دخل بيتًا تجمّع فيهِ المتاع بعضهُ الى بعض وجُعل اكوامًا لا ترتيب فيها لينقل الى بيت آخر فيكلّ النظر من مشاهدتهِ ويسرع مَن دخلهُ الى الخروج منهُ تخلصًا من حرج العين . وقس على ذلك موافقة الاجزاء للمجموع والوسائط للغاية في مناظر الطبيعة واعمال الصناعة والتآليف الادبيّة فالذي يعجبنا مثلاً في ساعة ظريفة من فضة او ذهب ليس فقط بهجة المعدن وطلاوتهُ ودقة الدواليب ورهاجة الحجارة الكريمة التي فيها بل ايضًا موافقة اجزائها للمجموع وتوجيهها الى غاية واحدة وضعت لها هي الدلالة على الوقت . فينتج ممّا تقدم ان ملاحة الشيء قائمة بتوفُّر شروط الملاحة فيهِ وان هذه الشروط ليست بصفات عرضيّة

اصطلح الناس عليها لتعريف المليح بل هي صفات ذاتيّة موجودة في الاشياء تؤثّر في الناس بنوع واحد اذا تساوت طبقاتهم في التهذيب والحضارة وقوة الحواس الظاهرة والباطنة

ولا بأس ان نذكر في هذا المقام ما وقع من الخطاء في تعريف كتاب "دائرة المعارف" للجمال في الصفحة ٥١١ من المجلد السادس حيث قال "وبالاجمال فهو (اي الجمال) امر موهوم بالحقيقة موجود بالعرض فهو عرض ظاهر تشعر به الحواس او احداها فترتاح اليه وتسرّ به النفس وينشرح الصدر ويبتهج القلب فهو مشترك بين الحواس جميعًا وقد لا يدرك بالحواس بل بالتصور فيحدث نفس التأثير في النفس من اللذة والارتياح وعلى ذلك يكون مشتركًا بين امور كثيرة حسيّة وعقليّة "فخطاء هذا التعريف غنيّ عن البيان وتكفي الاشارة اليه للعاقل اللبيب. وفي الصفحة نفسها عدّد آراء الفلاسفة المختلفة في تعريف الجمال وصفاته فذكر منها رأي اكثر المتأخرين بقوله "واكثر المتاخرين على انه (الجمال) ظهور الغير المرئي بواسطة المرئي في قالب القبول" فنقول ان هذا التعريف معمًى عزّ علينا ادراك معناهُ ولربما مَن ترجمة او لخصه لم يفهم فحواهُ والّا لما اتانا به بشكل احجيّة لغويّة للعقل شاغلة

فضابط الذوق اذًا هو ذات المليح الذي يميل الانسان اليه ومرجع الجدال في امور الذوق البحث عمّا اذا كان الشيء الواقع الجدال فيه حاصلاً على شروط الملاحة او لا. ونسبة هذه الشروط الى المليح كنسبة شعاع النور الى المنظور. فكما ان المرئيّ يزداد جلاء كلما ازداد شعاع النور المنعكس فيه كذلك المليح يزداد رونقًا وبهاء كلما تعددت فيه شروط الملاحة.

ووظيفة الذوق السليم ادراك هذه الشروط في الموضوع والاشعار بها والارتياح اليها. وبهذا يقوم الاستحسان بل كمال الذوق. ومن ثم لا نصف بسلامة الذوق الّا من استطاع الفصل بين شروط الملاحة واداء المليح حقه من الالتفات اليه والتلذذ به وتنزيله المنزلة التي هو خليق بها في طبقة الجمال. وننسب الى فساد الذوق من يستمن ذا ورم فيعدّ مليحة اشياء خلت من شروط الملاحة لمجرّد استلطافه فيها محاسن وهميّة وزخارف ظاهرة لاطائل لها

وللذوق السليم مزيتان يقوم بهما كماله هما الرقة والصحة. فالرقة هي قوة الحاسة الفطريّة اذا بلغت درجة الكمال بالرياضة والتهذيب وهي اساس الذوق وبها يتمكن صاحبها من ادراك محاسن خفيّة في الاشياء لا تدركها عين سواهُ والاكتشاف في زوايا الامور على خبايا من دقائق الملاحة لا يتيسر لغيره الانتباه لها. فصاحب الذوق الرقيق قوي المشاعر سريع التأثر ميّال الى الجمال نفور من المستهجن تؤثر نفسه المليح الحقيقي وترتاح اليه وتلحظ بسرعة عجيبة النقص والعيب والتكلّف فتعرض عنها وتشمئزّ منها. واما الصحة فهي مزيّة بل ملكة

مكتسبة تعصم الانسان من التهوّر في الحكم بامور الذوق وتجعله يقدّر الاشياء قدرها فلا يعتبرها الّا قدر ما تستحق ولا يبخسها حقها . وصاحب الذوق الصحيح حاكم عدل لا يفوته شيء ممّا للمحسوسات والادبيات او عليها من حيث الملاحة وهو كثير التخصص بطيء الرأي يحبّ التنقيب والانتقاد حرزًا للحقيقة وتحذرًا من الخطاء . فالرقة والصحة اذًا مزيتان لاغنى عنهما لمن يريد الانصاف بسلامة الذوق . فالأولى قوة فطريّة يزيدها الاكتساب دقةً ولطافة والثانية ملكة اكتسابيّة تعينها الفطرة على البلوغ الى شأو الكمال في امور الذوق

وغير خاف على اللبيب ما للذوق من الاهمية الكبرى في الامور البشريّة فانهُ محور الاعمال الصناعيّة ومدار العوائد والآداب وبهِ تعرف درجات التهذيب والحضارة بين الامم المتفرقة على وجه البسيطة . فمَن يضرب في البلاد و يجوب العواصم العظيمة المتمدنة لترويح النفس والاستفادة يرى احكام الذوق سائدة في البناء والسكن ونصوصهُ معمولاً بها في العوائد والاخلاق والمعاملات وقواعدهُ متّبعة في الخطابة والانشاء . حيثما سار رأى ما يعجب ويروق وكلما تفقد مشهدًا مألوفًا رجع عنهُ باهتًا مدهوشًا

والذي حملنا على وضع هذه المقالة في الذوق ما رأيناهُ من الاهمال بهذا الخصوص في الكتب العربيّة . فاننا مع ما نحن عليهِ في الحالة الحاضرة من قرع ابواب المعارف للترقي في درجات الحضارة لم نشاهد فينا من تكلّف مشقة هذا البحث العميم الفائدة . وقد كان الاولى بنا تفضيلهُ على كثير من المباحث اللغويّة الركيكة والمسائل العلميّة السامية التي لا تجدينا كبير فائدة . وهاك الفرنجة الذين سبقونا بمراحل في ميدان العلوم والمعارف قد افردوا لهذا الموضوع علمًا مخصوصًا " سموهُ استيتيكا " للبحث عن الملاحة في الطبيعة والصناعة فلما جاء ذكرهُ او عرف سرهُ بين الناطقين بالضاد . فهلّا كان جديرًا بنا على الاقل ان نفرد بابًا للذوق في كتب آدابنا نبين فيهِ ماهيتهُ وقواعدهُ وشروطهُ تمهيدًا للبحث في ما يختص منهُ باللغة والانشاء . فاننا نقول ولا نخشى لومة لائم ان لغتنا العربيّة رغمًا عن مباهاتنا بها واطنابنا بمدحها كثيرة الاحتياج الى التهذيب والاصلاح وفقًا لاحكام الذوق . وبيان ذلك يخرج عن موضوع هذه المقالة . وياحبذا لو قام فينا رجال لهم طول الباع وعلوّ الهمة وشمّروا عن ساعد الجدّ للبحث في شوائب اللغة وعيوب الانشاء المستحسن عندنا توصلاً الى التنقيح والاصلاح غير مبالين بتنديد الجهلة وملامة الاغبياء . فان البحث عن الزلة يدعو الى اجتنابها و بيان وجه الخطاء يرشد الى وجهة الصواب ومن سعى في هذه المآثر الحميدة له عظيم الفضل وخلود الذكر